محاضرات في مقياس الفلسفة والبيوإيتيقا

موجه للسنة الثانية ليسانس تخصص فلسفة

السنة الجامعية 2025-2026

تمهيد:

لقد شهد العلم الكثير من التطورات خاصة في مجال علوم الحياة والبيولوجيا، هذا ما أدى إلى ظهور قضايا ومشاكل أخلاقية جديدة، لم تستطع أطر الأخلاق الكلاسيكية استيعابها، ناتجة عن تلك التجارب والمحاولات المخبرية في مجال الطب والبيولوجيا والتي تتخذ من الكائن الحي موضوعًا لدراستها خاصة الكائن الإنساني، الذي بدأت تطرح أمامه هذه الاكتشافات الكثير من المشاكل، بل قد أخذ بعض التجارب بعدًا هدد فيه وجوده، خاصة تلك التي دعمتها لوبيات سياسية وعسكرية لأغراض غير علاجية، ومنها تقنيات الإنجاب الاصطناعي، وتقنيات الهندسة الوراثية، والتحكم في الجهاز العصبي للإنسان، وزرع الأعضاء والتلاعب بأجساد الموتى ...

هذا ما جعل الفلسفة تتدخل لتدرس طبيعة هذه التطورات، ونشأ بذلك مبحث جديد ألا وهو البيوإيتيقا، فما هي البيوإيتيقا؟ وما هي أهم المواضيع التي تطرحها؟ وما علاقتها بالأخلاق الكلاسيكية؟

1- مفهوم البيوإيتيقا:

يجمع مفهوم أخلاقيات البيولوجيا بين مفهومين: السير للمعرفة البيولوجية وروح القيم الإنسانية. وقد تم استخدام مصطلح "أخلاقيات علم الأحياء" في البداية بمعنى واسع جدًا، أين اقتصر على الأسئلة التي أثارها ظهور الممارسات الطبية الجديدة في نهاية السبعينيات. ومع التقدم السريع في التكنولوجيا الحيوية، ركزت أخلاقيات علم الأحياء بسرعة على حقوق الإنسان وعلى دراسة المشاكل الأخلاقية التي يطرحها تطبيق هذه التطورات العلمية على البشر.

وبالتالي يمكن تعريف الأخلاقيات الحيوية على أنها "مجموعة من الأبحاث والخطابات والممارسات، متعددة التخصصات عمومًا، تهدف إلى توضيح أو حل المسائل ذات الأهمية الأخلاقية التي يثيرها تقدم وتطبيق العلوم التقنية الطبية الحيوية" (جيلبرت هوتوا).

تسترشد أخلاقيات علم الأحياء بأربعة مبادئ رئيسية: مبدأ احترام الاستقلالية، ومبدأ الإحسان، ومبدأ عدم الإساءة، ومبدأ العدالة. تم توضيح هذه المبادئ في تقرير بلمونت، الذي نشرته وزارة الصحة والتعليم والخدمات الإنسانية بالولايات المتحدة عام 1979.

لكن يعود ظهور مصطلح البيوإيتيقا كما أجمعت الكثير من الدراسات إلى بداية فترة السبعينات من القرن الماضي، وكان ذلك مع البيوكيميائي المتخصص في طب الأورام السرطانية Van Rensselaer Potter(1911-2001)، وبالتحديد سنة 1970م، في مقال نشره بالمجلة الأمريكية المتخصصة Perspectives in Biology and Medicine، تحت عنوان Bioethics, the Science of Survival، حيث قادته أبحاثه الميدانية إلى التعامل مع الكثير من الحالات المرضية التي طرحت أمامه إشكاليات معقدة، منها ما تعلق بجسد المريض الماثل أمام الطبيب بآلامه وآهاته، في مقابل ما يَجدُّ كل يوم في البحث الطبي والبيولوجي، هذا التقابل الذي يحتاج إلى قرارات علاجية تتداخل مع مواقف مختلفة كذاتية الطبيب المعالج، وموقف أسرة المريض وقوانين وأعراف وديانة المجتمع، أو ما يمكن جمعه فيما يسمى بالأخلاق Ethics، كل هذا جعله يحاول أن يبلور مقاربة نظرية لهذه الحالة، سواء بإيجاد مفاهيم ملائمة لنعتها أو من حيث ضبط تصورات يحتكم إليها الطاقم الطبي إذا واجهته مثل هذه المواقف، حيث يقول بوتر ضابطا هذا المفهوم "إن العلم الذي يجعلنا نحافظ على الحياة، لا يمكن حصره في أخلاق الطبيب، بل إن مجالاته تمتد إلى كل القضايا الأخلاقية، والتي تتداخل أطروحاتها في هذا الشأن مع الكائنات الحية، سواء كان إنسان أو غير ذلك من أشكال الحياة"[1].

رغم الغموض الذي تحمله هذه العبارة إلا أنها تكشف التداخل الكبير بين الطب وحقول أخرى كانت تعتبر غريبة عنه، وهي مختلف القضايا الأخلاقية المطروحة في المجتمع، رغم أن الطب كممارسة نبيلة، اقترن منذ ظهوره بالشكل المنظم مع أبقراط في القرن

[1] Roberto Andorno, La bioéthique et la dignité de la personne, P.U.F 1997, p 04-06.

الخامس قبل الميلاد بالأخلاق الفاضلة بمقاييس ذلك المجتمع، ونقصد به المجتمع اليوناني، الذي كان يعلي من القيم الفاضلة، ويعتبرها مكمّلة لشروط المروءة والمواطنة، إلا أنه لم تكن الأخلاق لتمثل مشكلة أمام تطور بحوث الطب كما هو الشأن اليوم، بل بالعكس كانت مؤازرة لعمل الطبيب ومكملة لعلمه، حيث كان أبقراط يوصي طلابه بالتزام الأخلاق الفاضلة مع المرضى مهما كانت درجة مرضهم، ومن وصاياه لأحد تلاميذه "ليكن أفضل وسيلتك إلى النّاس محبتك لهم، والتّفقد لأمورهم، ومعرفة أحوالهم، واصطناع المعروف لهم"[2].

إلا أن الجديد حسب بوتر هو ذلك التأثير المباشر الذي أصبحت تمارسه الأخلاق على البحوث العلمية ومنها الطبية والبيولوجية، فبعدما كانت تلعب دور الرفيق أصبحت تلعب دور الرّقيب، وهذا ليس موقفًا متزمتا منها، وإنما ذلك راجع إلى التطور المذهل الذي شهدته هذه الأبحاث أمام عجز منظومة المبادئ التي تملكها الأخلاق عن مسايرتها، لأن الاكتشافات الكبرى في الطب والثورة البيولوجية طرحت الكثير من المسائل الجديدة التي مست حتى التحويرات الجينية، أو ما يسمى بالقاعدة الحيوية للهوية الفردية، المكونة من الإرث الجيني، وهي مسائل لم تستطع مبادئ إيتيقا الطب استيعابها، لذلك ظهرت البيوإيتيقا من أجل الاهتمام بالإشكاليّات النّاجمة عن التطورات البيوطبية وما تطلبه من حلول وما تفرضه من تشريعات حقوقية.

في مقابل الرؤية الشمولية التي تطرحها مقاربة بوتر، تبرز مقاربات أخرى تحاول حصر المفهوم داخل الأطر الضيقة التي أثارتها العلوم البيولوجية ومجالات تطبيقاتها الطّبية، وتجعل المناقشات التي تثيرها منحصرة داخل مؤسسات ومراكز خاصة، مثل ما أشار إليه أندري هيليغرز A.Hellegers (1926-1979) الذي أسس "مؤسسة كندي للأخلاقيات" سنة 1971م، أين ساهمت هذه المؤسسة بشكل كبير في نشر هذا المصطلح، خاصة في أمريكا، رغم تحوله اليوم إلى مشروع عالمي، إلا أن منشؤه يبقى داخل دوائر البحث الأمريكية[3].

[2] إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، د.ط، د.س، ص 47.
[3] عمر بوفتاس، البيوإتيقا الأخلاقيات الجديدة في مواجهة تجاوزات البيوتكنولوجيا، أفريقيا الشرق، المغرب، 2011، ص ص 15-16.

المحاضرة الثانية:

تمهيد:

إن البيوإيتيقا اليوم لا تهتم بالنّظريات الطبية والبيولوجية بل تهتم بتطبيقاتها العملية، خاصة في الميدان الطبي، وتتبع ما سيترتب عن هذه الممارسات من استتباعات حقوقية ودينية وسياسية وأخلاقية وإيتيقية... لا سيما عندما يرتبط الأمر ببعض النّتائج العملية المتعلقة بالاختيارات السياسية والعسكرية، هذه القوى الضاغطة توجه مجالات البحث الطبي إلى ما يخدم مصالحها دون مراعاة لانعكاسات ذلك على مستقبل وهوية الإنسان، وهو ما جعلها تستمد مشروعها وسند مناقشاتها مع العلم من القيم الأخلاقية السائدة، فما علاقة الأخلاق بالبيوإيتيقا؟ وهل يمكن أن تكون البيوإيتيقا صورة محسنة ومطورة لمبادئ الأخلاق الكلاسيكية التي عجزت صورتها النمطية عن مسايرة ذلك التطور الكبير والهائل الذي شهدته العلوم بمختلف فروعها، خاصة تلك العلوم التي أصبحت تتعامل مع الإنسان مباشرة؟ أم هي قيم أخلاقية جديدة قائمة على آلية المراقبة المكثفة لما يجري في معامل الطب والبيولوجيا بدل المرافقة الصامتة التي كانت تميز الطب التقليدي؟

2- الأخلاق والبيوإيتقا:

من حيث الاستعمال للمصطلحين، فإن الأخلاق Ethique ترجع إلى المصطلح اليوناني Ethikos، والتي تهتم بالعادات وعلم المبادئ... الذي هو قسم من الفلسفة، وهي تهتم بالغاية من الحياة البشرية، كما أنها تشير إلى مدى تطبيق تلك المبادئ في الحياة بمختلف مواقفها، أما البيوإيتيقا فهي تتألف من كلمتين يونانيتين هما بيوBios بمعنى حياة، و إيتيك Ethique بمعنى الأخلاق، لكن ظهور المصطلح مركبا في صورته الحالية يرجع كما قلنا إلا أواخر الستينات، والذي استعمله الأمريكي بوتر، حيث اعتبر البيوإيتيقا باعتبارها "دمجا بين المعارف البيولوجية والقيم الإنسانية"[4].

هنا تظهر الإضافة التي تختلف بها البيوإيتيقا عن الإيتيقا، وهي مجموعة المعارف البيولوجية التي استجدت في هذا البحث، وهنا كأن البيوإيتيقا تحاول أن تربط ما هو ساكن ومتمسك بمبادئ موضوعية ألا وهي الأخلاق بما هو متحرك ونسبي والمتمثل في نتائج

[4] المرجع السابق، ص 17.

العلم، وهنا لا تكتفي البيوإيتيقا بإدخال متغير المعارف الطبية والبيولوجية على الأخلاق، بل تعمل على إشراك كل ما يحيط بالعملية في معناها الشمولي، الذي يتضمن بالإضافة إلى تلك المعارف الطبية، من علم الوراثة وعلم البيئة وعلوم قانونية ودينية ونفسية واجتماعية... لتظهر في كل مركب لتقاسم المسؤولية كي لا يتحملها الطبيب بصفة فردية، وهذا كله حفاظا على مستقبل الجنس البشري، وتوفير شروط استمراره، وفق شروط تجعله يتطور وفي نفس الوقت يحافظ على حياته.

لذلك فإن الحكم الأخلاقي يمكن أن يصدر من هيئة محددة بغض النّظر عن الاختلاف الذي نجده عند الفلاسفة، سواء كان ضمير أو مجتمع أو عقل أو دين... لكن الحكم البيوإيتيقي أعقد من أن تستطيع جهة محددة أن تصدره، فهو يتبلور نتيجة نقاش لكثير من الأطراف، لأنه أعقد من أن نستطيع صياغته في حكم واحد يحمل صفة الإطلاقية.

3- البيوإيتيقا بين المقاربة الأخلاقية والممارسة العملية:

هل يمكن للبيوإيتيقا مغادرة أسوار الجامعة ومخابر البحث لتنخرط مع الأطباء في مجال اختصاصهم؟ وما موقع البيوإيتيقا داخل منظومة البحث العلمي؟ هل تنتظر البحث العلمي وخاصة الطبي ليستمر في التقدم ثم تصدر حوله أحكامًا قيميّة، مفرغة من طابعها الإيديولوجي؟ أم عليها أن تراقب هذه المخابر قبل شروع العلماء في أبحاثهم، وبذلك تحاكم مشاريعهم ونواياهم؟ لكن لتفعل ذلك، هل عليها أن تتحالف مع قوة تمكنها من القيام بهذا الدور الضاغط، ونقصد بها القوى السياسية والعسكرية... التي هي في الأساس مصدر الرغبة في البحث والتطوير؟ وهل البيوإيتيقا تراعي الحالات الشخصية وتدعو إلى إنقاذها أم أنها تهتم بمجالات "الصحة العامة" التي تعتبر قضايا اجتماعية لا يمكن إغفال انعكاساتها على الأفراد؟[5]

لم تعد رهانات البيوإيتيقا اليوم منحصرة في ضبط مفاهيم ورسم حدود نظرية، بل أصبحت اليوم مدعوة أكثر من أي وقت مضى إلى الانخراط في الممارسات البيولوجية والطبية في مختلف أبعادها سواء الإيجابية أو السلبية، كما أن البيوإيطيقي لا يمكنه لعب

[5] Guy Durand, Introduction générale a la bioéthique, Fides-Cerf, 1999, p146-149.

دور الرسول الذي يعطي تعاليمه الالزامية والمستمدة من سلطة عليا لا تخطئ، بل هو مدعو إلى التفكير مع الطبيب والمريض والمجتمع بكل أطيافه لضبط مفهوم الحياة، وما تتضمنه هذه الحياة من مفاهيم وقيم كالذاتية، الحرية، الشخص، الجسد، الحق، الكرامة، الصحة، المرض، الشفاء... وعليه أن يزيل الضبابية عن كل المفاهيم التي تناسلت بشكل كبير في ظل التطور التكنولوجي المذهل، لأن التحكم في الحياة بمفاهيمها هو أكبر ثورة في تاريخ الإنسانية[6].

وهنا عندما نزلت البيوإيتيقا إلى الواقع، تغيرت مدلولاتها لتحمل طابع "أخلاق الطبيب" "أخلاقيات العيادة" "قانون الطب"... وكلها تتعلق بالممارسات الطبية والممارسات الموازية لها، أين كشفت عن الكثير من الحالات التي يصعب اتخاذ قرارات بشأنها، أو صعوبة الإدلاء ببعض المعلومات المتعلقة بالمريض أو أهله، وقد وصفها المفكر دفيد روي David Roy في قوله: "تتضمن أخلاق العيادة كل ما يواجه الأطباء وطاقمه العلاجي من قرارات وشكوك واختلافات، سواء ما تعلق بالمريض وأسرته أو ما يجري داخل غرف الجراحة، بغض النظر عن مكان إجراء هذه النقاشات بالمكتب الاستشاري أو في رواق العيادة أو في المنزل".

لقد انتقلت البيوإيتيقا من التنظير داخل أسوار الجامعة إلى العيادة بمختلف فروعها، لترافق المريض وتقف مع الطبيب وتستمع إلى المجتمع بمختلف أطيافه، وتحاول أن تقرب بين وجهات النظر المختلفة في إطار ما يخدم المريض ويحمي الطبيب ولا يضر بالمصلحة العامة للمجتمع.

4- البيوإيتيقا والنّظام التقني الجديد:

إذا كانت البيوإيتيقا تدخل ضمن إطار تحوّل أساسي لمجتمعاتنا المعاصرة، فإنه يصعب تصور مقوماتها ونهاياتها، لأنها تحتاج إلى مراجعة دورية لتساير ذلك التقدم المذهل الذي تشهده التقنيات الطبية والبيولوجية اليوم، وهذا يذكي الاعتقاد بأن مبادئ وأحكام البيوإيتقا

[6] Jonas Hans, Le Principe de la résponsabilité, Ed cerf, Paris, 1995, p 331.

ستحل تدريجيًا محل المبادئ الأخلاقية في صورتها الكلاسيكية، بما أنها تتغير وتتجدد بتجدد الغايات التي وجدت من أجلها، وهي مسايرة النظام التقني الذي يعرف كل يوم شيء جديد، فالبيوإيتيقا لا تحقق نفسها بالاندماج السلبي داخل المنظومة الكلية التي أوجدتها الأنساق الأخلاقية الكلاسيكية، بل عليها أن تعيد صياغة هذا الواقع ضمن أحكام تتأقلم مع متغيراته، وعليها أن تساير عالم التقنية الجديد إذا رغبت أن تستمر في البقاء، لأن تاريخ ماضي الحضارات يشهد بأن التخلي والإقصاء يطال تلك المبادئ التي لا تتسم بالتطور.

كما أن البيوإيتيقا يبقى عماد وجودها هو انخراطها في تلك العلاقة القائمة بين الكائن الحي البشري وبين التطور التقني، هذا التطور الذي يمثل شرط إمكان وجود الإنسان نفسه أنطولوجيًا، فالبيوإيتيقا كأنها تريد أن تأخذ موقع حماية ذلك الطبيعي من التدمير الذي قد يطاله من الاصطناعي، لأن الإنسان له القدرة على إثبات نفسه من خلال عملية التموضع بلغة بول ريكور P.Ricoeur وهذه القدرة هي نفسها من تهبه القدرة على التحايل على النّظام الطبيعي[7]، وفي مثل هذا الإطار لا تكمن الأنسنة في ترييض الطبيعة من أجل السيطرة عليها، كما هو الأمر في حدود الرؤية التي يفضي إليها العلم الحديث، بل في الاحتفاظ فيها بما يبقيها في موقع الآخر الذي يمكننا أن نتواصل معه، باحترام حقه في الكينونة، أي أنها تكمن بوجه ما في أن نحافظ على العالم لا باعتباره موضوعًا غريبًا يتوجب تغييره كليًا وفق مقتضيات الرغبة اللاّمتناهية، بل باعتباره ذاتًا أخرى نؤلف بمعيته عالمًا مشتركًا[8].

كما على البيوإيتيقا أن تعمل على تغيير نظرة اللامبالاة لأحكامها، فلا تلقى نفس المصير الذي شهدته الأخلاق الكلاسيكية، خاصة في الأوساط الثقافية والجامعية، التي لم تكن تعير أدنى اهتمام للأخلاق والآداب إلا بشكل ضئيل، باعتبار ارتباطها بالدّين، فالظاهرتان رغم اختلافهما الظّاهري، ليستا في الحقيقة إلا ظاهرة واحدة، وبما أن النخبة المثقفة –خاصة في أمريكا- كانت تعتبر أن الدّين أصبح ظاهرة متجاوزة، فقد كان من الطّبيعي أن تعتبر الأخلاق التّقليدية بدورها ظاهرة متجاوزة أو ملغاة[9]، وحصر الأحكام الدينية أو الدين ككل

---

[7] P.Riceour, Histoire et Vérité, edition Seuil, Paris, 1955, pp 222-224.

[8] محمد عادل مطيمط، من "فرضية إلغاء العالم" إلى هستيريا السلوك التقني الحديث: كيف أعدّ القرن السابع عشر لانهيار العلاقة بين الإنسان والطّبيعة، ضمن كتاب جماعي أنسنة التكنولوجيا، تحت إشراف سالم لبيض، منشورات اللجنة الثقافية المحلية بجرجيس، ط1، 2006، تونس، ص 25.

[9] عمر بوفتاس، البيوإتيقا الأخلاقيات الجديدة في مواجهة تجاوزات البيوتكنولوجيا، مرجع سابق، ص 53.

في الأصولية المتشددة، ولذا يسهل رميه بالقصور وأنه مصدر تهديد للذات إنسانية التي تريد أن تعيش بكل بساطة في وفاق مع الطبيعية، فهو يخوفنا من عودة الديني كلما واجهت المبادئ الأخلاقية في صورتها الكلاسيكية أو الميتافيزيقا ذلك التغول الذي عرفته التطبيقات التّقنية، ويوهمنا بأن عودة الديني هو عودة للعصور المظلمة التي نفقد فيها الحرية والنور الذي صنعته هذه العلوم، "فالعالم الغربي الحديث، المغرور كليًا بتفوقه التّاريخي، قد ينتج أوقيته الخاصة إلا إذا لم يكن رد الفعل، وهذا تنويع آخر على هذا الخطاب، يتجذر في الخارج، في آخر تشنجات أفول الاستعمار، فإسلام الخميني، ومسيحية السيد لوفيفر، أو يهودية اليمين المتطرف الإسرائيلي، قد ينبغي أن تفهم على أنها الأوجه المتنوعة لظاهرة فريدة ومقلقة وهي التمامية أو الأصولية"[10]، فالمعارضة التي تلقاها البيوإيتيقا ستكون موجودة بل ستون أكثر شراسة من خليفتها الأخلاق الكلاسيكية، لأنها وبكل بساطة أكثر توغلا في المخابر والمؤتمرات العلمية من الأخلاق في صورتها الكلاسيكية.

إن فرضية إلغاء الأحكام الأخلاقية كما هي معطاة في الضمير الجمعي من طرف النخبة، لا يجب أن نعثر عليها بصفة مباشرة أو نجد لها تسمية صريحة في نصوص الممتهنين للعلم الحديث أو المعاصر بشكل مفرط، لكنها كانت تشتغل بصمت لدى أغلب العلماء والفلاسفة المابعد حداثيين، ويمكننا أن ندرك ذلك إذا أمعنا النظر في تطور المنهج العلمي، وفي أبحاث الفيزيائيين من أمثال "غاليلي" أو "بيكمان" قبل أن تتحول بعد ذلك إلى فرضية فلسفية أساسية تتنزل في مقدمة المشروع النّسقي لهذا الفيلسوف أو ذاك، وهذا ما بشرت به الفلسفة النيتشوية، التي طالما نظرت إلى الأخلاق بأنها تحمل بذور فنائها، لأنها لم تقدم لنفسها أسباب استمرارها في الوجود، ولطالما كان تشبثها بالمقدس فإن طريق نهايتها قد قرب، يقول نيتشه ملمحًا إلى هذه النهاية في كتابه "العلم المرح" "رأى قديس رجلاً قاصدًا إياه وهو يحمل وليدًا، "ماذا عساي أن أفعل بهذا الطّفل، سأل هذا الأخير، فهو معدم ومخفق ولن يعيش كفاية ليموت". "أقتله"، صاح القديس بصوت عنيف "أقتله وخذه ثلاثة أيام وثلاثة ليال بين ذراعيك حتّى تتذكر ذلك، بهذا لن تلدنّ طفلاً أبدًا إذا لم يكن الوقت ملائمًا"، عندما سمع الرّجل هذه الكلمات رحل خائبًا ولام كثير من النّاس القديس

[10] لوك فيري، الإنسان المؤله أو معنى الحياة، ترجمة محمد هشام، إفريقيا الشرق، د.ط، 2002، ص 54.

بكونه نصح بالإقدام على فعل قاس كقتل الطفل، "لكن أليس أكثر قساوة أن ندعه يعيش؟" قال القديس"[11].

قد يُنظر إلى الإلغاء الذي مارسه نيتشه على الأخلاق على أنه إلغاء ميتافيزيقي، لكن هذا الإلغاء كان له الأثر البالغ على كل مناحي الحياة، وارتسم ظله حتى على المؤسسات العلمية المعاصرة، التي تسعى إلى تطبيق كل التقنيات في سبيل تحقيق نتائج أبحاثها.

خاتمة:

إن البيوإتيقا تتداخل في مفهوما مع الأخلاق الكلاسيكية وفي تطبيقها مع الأخلاق العلمية بمختلف حقولها والأخلاق السياسية، لتأكد بأنه ليس هناك تعارض بين الممارسة والمبادئ المصاغة في إطار تعاقدي، والتي أفرزتها الممارسات الرمزية واللغوية في إطار النّدوات والنّقاشات والتفاعلات التواصلية ومحاولات الإقناع باتخاذ قرار معين، وليس الممارسات التّقنية أو الجسدية فحسب، كما أن الخطابات لها بعد عملي، أي أنها ذات قصد معياري يسعى للحث على خيارات معينة وبالتّالي توجيه الفعل والممارسة.

إن تعدد الاختصاصات التي تتداخل مع البيوإيتيقا -العلم والدين والقانون والمبادئ الملزمة في كل مجتمع... جعلها صعبة الضبط وغير محددة المعالم، فظهورها الحديث، ووضعيتها التي تتأرجح بين عدة معارف وعلوم، إضافة إلى حمولتها الإيديولوجية، كل ذلك جعل هويتها غير قارة ومثيرة للجدل.

إن الفكر البيوإيتيقي ليس وليد السنوات المتأخرة، بل هو ضارب في تاريخ الفكر الإنساني، ويمكن إرجاعه إلى ممارسات الطب الأولى التي كانت مرفوقة بتوجيهات أخلاقية صارمة في استخدامها، ومن هذه الممارسات ما جسده الطب الأبقراطي والطب الجالونيسي، كما كان لأرسطو الكثير من التوجيهات والوصايا للمقبلين على ممارسة مهنة التطبيب، فما هي أهم معالم جذور الفكر البيوإيتيقي؟ وكيف يمكن إعتبارها اللبنة الأولى للفكر البيوإتيقي في صورته المعاصرة؟

[11] فريدريك نيتشه، العلم المرح، ترجمة وتقديم حسان بورقية ومحمد ناجي، إفريقيا الشرق، المغرب، 1993، ص 73.

تمهيد:

إن الكثير من القيم المبنية على صورة الإنسان التقليدية تتغير، ليتغير معها الكثير من المفاهيم الفلسفية المرتبطة بها، وفي خضم هذا التغير المتسارع نتساءل عن حقيقة الإنسانية المأزومة اليوم، التي تتشارك في مناقشة مشاكلها كل من البيوإيتيقا والفلسفة.

ومن هنا نتسائل في محاضرتنا هذه: هل هناك مكان للتأمل الفلسفي في هذه الأزمة أمام التطور التكنولوجي الهائل؟ وهل بإمكان العدة الأخلاقية التي يملكها الإنسان المعاصر أن تساعد في توجيه هذا التغول الذي شهدته التكنولوجيا؟ وما هو البديل الذي نستطيع من خلاله فهم أنفسنا، وفهم العوالم التي حولنا دون الوقوع في فخ المشاكلة التي تذوب معها خصوصية الإنسان الفردية؟ وما علاقة الفلسفة بالفكر البيوإيتيقي اليوم؟

أولا: **الفلسفة والبيوإيتيقا منطلق الانشغال:**

لقد كانت الفلسفة ولازالت تعتقد في نفسها المالكة للقدرة على تأصيل رؤية كلية للطبيعة وللإنسان، بما أنها تصلح إطارًا نأمل أن تتوافق فيه الحياة الفردية مع الحياة الجماعية[12]، هذا ما حرص على تأكيده هابرماس في كتابه "مستقبل الطبيعة البشرية"، وقد تغدو الفلسفة مجالاً يحقق فيه الإنسان توافقًا بينه وبين الطبيعة، أين يتكامل في فضاءها المجال القيمي مع المجال العلمي، إنشاءً لعقد طبيعي جديد يحيي فينا قيمة الإنساني، الذي ينظر إلى ظواهر الطبيعة كرفيقة لحياته وليست خادمة ولا ندًا له[13].

ولما كان المجال التقني هو المجال الذي تنشط فيه حياتنا اليوم، وهو الذي مكّن الإنسان من تغيير الكثير مما كان يبدو طبيعيًا، كان لزامًا علينا تحديد الممكن واللاّممكن في هذه الحياة، وذلك بالتأصيل لممارسات مسالمة مع الطبيعة، تجعلنا نتشبث بالحياة الحسنة والمجتمع السوي في بيئة مسالمة، لهذا احتجنا إلى نموذج إيتيقي مرن يضمن لنا هذا التعايش، بما أنه هو العقد الذي يحافظ به الإنسان على نفسه وعلى الوسط الذي يعيش فيه.

لكن التحولات الأخيرة التي شهدها واقعنا اليوم جعلت النموذج الأخلاقي في صورته التقليدية يتقلص شيئًا فشيئًا[14]، وغدا الإنسان بعدما كان أكثر الكائنات تطورًا، من أكثر

[12] Habermas, L'avenir de la nature humaine, ed Galimard, Paris, 2002, p 10.

[13] اعتبر الكثير من المفكرين والفلاسفة وعلى رأسهم ديكارت وبيكون أن الإنسان سيدا للطبيعة، بما يملكه من قدرات خاصة العقل.

[14] Ibid, p10-11.

الكائنات هشاشة، نظرًا لتحوله إلى موضوع بحث وتجريب لدى الكثير من فروع العلوم، خاصة الطبية والبيولوجية منها، لدرجة خشي فيها على نفسه بفقدان وجوده.

من هنا غدا الخطاب الفلسفي هو المجال الذي تُنشأ فيه هذه القضايا، وتنغرس فيه الكثير من المقولات العلمية والاجتماعية والنفسية والقانونية والانثروبولوجية والايتيقية... باعتبار أن أي علم يقع في أزمة سواء على مستوى المنهج أو المبادئ أو النتائج أو حتى الذات الدارسة يعود إلى الفلسفة، بما في ذلك الفكر الذي تنكر لغاياتها، لذلك فإن استعادة الفيلسوف لدوره في بناء المفاهيم ضرورة ملحة، لأنه لا يكفي فقط العمل على تراكم المعرفة، بل يجب العمل على تحديد مبادئها ومساراتها ثم مآلاتها، بما أنها تمس في اشتغالها طبيعة الإنسان، بمختلف أبعاده.

من هذه الحاجة جاءت البيوإيتيقا في صورتها الجديدة، لتملئ ذلك الفراغ الإيتيقي الذي عرفته الأخلاق التقليدية[15]، لذا قد يصعب اليوم تحديد الاختلاف بين مصطلح "الأخلاق" Morale ومصطلح "إيتيقا"Ethique، والاستعمال الثاني للمصطلح أصبح أكثر تداولاً، وذلك تعبيرًا عن حالة من القلق والضيق من حصر مجال مصطلح الأخلاق، وقد يكون الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي فيليب زاريفيان Philippe Zarifian (1947-) من أكثر الذين عالجوا هذا الفرق، ذلك أن الأخلاق عبارة عن أحكام مصطنعة، لأنها تحدد العلاقات بين الفرد وباقي الأفراد في المجتمع وبين هذا الأخير وباقي المجتمعات، فهي تهدف إلى تحقيق النظام والأمن في السلوك البشري الاجتماعي.

هذا ربما ما جعل الكثير من الدراسات المعاصرة تدرج أغلب النظريات الكلاسيكية ومنها الكانطية، ضمن إطار علاقة الإنسان بالإنسان، أما الإيتيقا فهي تتجاوز هذه العلاقة، لأنها تهتم بعلاقة الإنسان بالإنسان وعلاقته كذلك بالطبيعة التي يعيش فيها، أو ما يسمى بمبادئ الحياة[16]، ابتداءً من علاقته بجسده إلى علاقته بالكون، وبذلك تتجاوز الإيتيقا كل مفهوم اجتماعي في تحديد القيم.

---

[15] Jean-charles Sournia, Ethique médicale :Origine , histoire, développements récent, Dictionnaire d'éthique et de philosophie morale, sous la direction de Monique Conto-Sperber, P .U.F, 1996, p1011 .

[16] Yannick Bruxelle et Michel Hortolan , Entre morale et éthique : apprendre ensemble à choisir ensemble, https://www.erudit.org/fr/revues/ef/2009-v37-n2-ef3580/038815ar.pdf p 51-52. 20-03-2021.

لذلك فإن رهانات الفيلسوف اليوم أصبحت موجهة أكثر إلى مواضيع الإيتيقا، وذلك بالعودة إلى التفكير في تحديد المفاهيم المفعمة بالمعيارية، والتي قد نستأنفها من الذات والشخص والكرامة والحرية والرغبة والصحة والبيئة وغيرها من المفاهيم، التي تستمد صمغ تركيبها من مقولة الإنسان المعاصر وعلاقته بما يحيط به، وكذا مع ما بناه من علاقات متشعبة في هذا العالم، هذه المفاهيم التي قد تتناسل بشكل رهيب يصعب فيها على الفكر النّمطي إعادة تركيب شظاياه أمامها.

إن فقدان المفهوم هو فقدان للمعنى الذي تُعرّف به المعرفة ذاتها، أين حصر مفهوم الإنسان فقط فيما ينتجه من فكر أو فيما يقوم به من سلوك، حيث ولّد هذا الحصر الإقصائي الكثير من المآزق القيمية، والتي تشكلت بين براثن علوم طالما نظر إليها الإنسان على أنها المنقذ للحياة، والمعين في تجاوز مختلف الصعوبات التي تطرحها أمامه الطّبيعة، بما فيها طبيعته البيولوجة، وهي الطب والبيولوجيا وما جاورهما من فروع، التي لا نكاد نحصي مواضيعها حتى تنبثق مواضيع أخرى، تغوص بنا في متاهات لا تحصى، حول عضوية هذا الكائن، والضامن المشترك بين هذه الحقول هو تعاملها مع الإنسان ككائن حي وفقط، دون تقييم لفكره ولا لسلوكه.

ثانيا: **القيم الأخلاقية كنقطة تقاطع:**

لقد تعرضت الإنسانية عبر تاريخها إلى الكثير من الأزمات، جعلتها تراجع الكثير من المبادئ والقيم التي كانت تؤمن بها، لكن تبقى درجة تأثير هذه الأزمات واللّحظات الحاسمة في تاريخ البشرية راجع إلى مدى تأثيرها على الحياة العامة للإنسان، وهنا مقولة الإنسان قد تأخذ معنا عدة أبعاد، بحسب المرجعية التي نتكلم عنه من خلالها، أين حصرت أبعاده في الخطاب الكلاسيكي ضمن القيم التي يريدها له هذا الخطاب، فكانت الابستيمولوجيا ومن ورائها كل المعارف بما فيها العلوم تخاطب الإنسان كعقل، والنظم الأخلاقية بمختلف مشاربها تخاطب الإنسان كضمير، والنظريات الوجودية والوجدانية تخاطب الإنسان كشعور، لذلك جاءت قيم هذه الأبحاث محصورة في ثلاثة أقطاب كبرى هي الحقيقة والخير والجمال، ومن هنا اطمأنت البشرية إلى مفهوم الكمال المنحصر في هذه القيم، التي تسوق التفكير نحو الحقيقة، والفعل نحو الخير، والنفس نحو تحقيق الطمأنينة وراحة البال بتمتعها بقيم الجمال.

لكن هذه القيم كانت تعبر عن "أشواق الإنسان" إلى عالم مثالي كامل، تسمو فيه الروح وتترفع فيه عن كل الملذات المرتبطة بالجسد، لهذا نُظر إلى الجسد بنوع من الدونية مقارنة بالنفس وقيمها، فقوبلت الحقيقة بظلال العالم المادي والخير بملذات الجسد وشهواته، والجمال بقبح صور المادة وبشاعة الجسد، حتى وإن بدا جميلاً.

لذلك جاء التأريخ لأغلب الأزمات التي عرفتها الإنسانية مرتبط بهذه القيم الثلاثة، فكانت هناك أزمات أو صدمات للفكر في بحثه عن الحقيقة، وتاريخ الفلسفة والعلوم مليء بهذه اللحظات، وأزمات أخلاقية سجلتها لنا النظريات الأخلاقية، وأزمات في تغير قيم الجمال من خلال تغير مفهوم الجميل في تاريخ الفنون. قد يثير هذا التقسيم الثلاثي الكثير من ردود الفعل المعارضة، بما أن الإنسان أعقد من أن تحصره هذه القيم، فهو زيادة على أنه كائن مفكر وأخلاقي ومتذوق للجمال، هو كذلك كائن سياسي واقتصادي واجتماعي... هذا صحيح إلى حد ما، لكن الخطاب الكلاسيكي اقتصر في أغلبه على هذه القيم، وشيد من خلالها صورته للإنسان، التي لم تظهر فيه صورته الأولى أو قيمته الأولى وهي قيمة الحياة.

إن قيمة الإنسان الأولى هي كينونته الحية، بما أنه يملك جسد يؤدي به هذه الوظائف كلها، وإذا تعرض هذا الجسد للعطب وشلت حركته انهارت معه كل هذه القيم، بما أن الإنسان قبل أن يكون كائنًا مفكرًا أو كائنا أخلاقيًا أو كائنًا ذواقًا للجمال هو كائن بيولوجي، يقوم بعمله نتيجة التكامل الخلاق والمنسجم لأعضائه البيولوجية، بما أن مجموع وثائقه البيولوجية وسلامتها هي من تضمن له الانتقال من مرحلة إلى أخرى، إن هذا الجسد هو الذي به وجد ومن دونه يتوقف عن الوجود.

لقد ولد الإنسان جاهلا بلا حقيقة، وشهوانيًا بلا أخلاق، وقبيحًا بلا جمال، واستمر في الوجود، لكن إذا لم يتمكن من تحقيق التكامل في عمل أعضاء جسده فإن ذلك يهدد وجوده، حتى العمليات الإدراكية أو السلوكية يمكن ردها إلى تكامل عمل عضويته الفيزيولوجية، لأنه حين يتراءى المرض للمريض، يظهر له خسرانه لذاته ولقيمه، ويعيش حالة من الاغتراب وفقدان المعنى "بما أن فقدان المريض للاتصال بجسده، يبعث في داخله الكثير من الأحاسيس الجديدة والغير معتادة والمتغيرة، التي يصعب قبولها"[17]، وهنا تتدخل

[17] D.Oppenheim, L'enfant et le cancer, éditions Bayarid, 1996, p 111.

التكنولوجيا محاولة إنقاذ هذا الجسد الذي به يستطيع الإنسان الاستمرار في هذه الحياة، ولكن بفرض شروطها ومساهمتها في بناء قيم جديدة على الإنسان الجديد الخضوع لها، حتى أنها أصبحت تساهم في بناء وتحديد الشخصية أو الهوية بتعبير بول ريكور P.Ricoeur(1913-2005م) التي يكون عليها ذلك الشخص[18]، فكيف لشيء صنعه الإنسان أن يساهم في توجيهه وفرض شروطه عليه؟

خلاصة:

لقد تغير مفهوم الأخلاق الموجهة للإنسان ذو البعد الأحادي، بين النظرة الفلسفية والنظرة البيوإيتيقية، فقد كانت الفلسفة تنعت بالشمولية، أصبحنا نبحث عن إيتيقا تغطي جميع أبعاد الإنسان أي شاملة، وترافق تمدده، سواء على المستوى الفردي من خلال التحكم في جسده، وكذلك على المستوى الجماعي، خاصة بعد تداخل عمل مؤسسات المجتمع في صياغة نموذج الإنسان المعاصر، كالمؤسسات التجارية والاستثمارية والإعلامية والسياسية والإستشفائية...

تمهيد:

إذا كانت الأخلاق الكلاسيكية تستقي مبادئها من الاتجاهات الفلسفية المختلفة، وقد كانت توصف بالدوغمائية ، فإننا نشهد اليوم تجاوزتها الكثير من الفتوحات الغير متوقعة في مجال العلم، لذلك على العقل أن يتخلص من دوغماتيته التي تشربها لقرون من تيارات كلاسيكية، طالما اعتبرت الخير والشر شيآن متقابلان يمكن وضعهما على طرفي المعادلة الأخلاقية إذا اتصفنا بالفضيلة، فالقول بأخلاق ثابتة في تمييزها للخير والشر هو قول بثبات الإنسان الذي وضع هذه القيم وعليه تنطبق، ولكن الواقع المعاش يكشف التطور الكبير الذي عرفته أوضاع الإنسان، هذه الأوضاع جعلت من الأخلاق في صورتها الكلاسيكية تدخل الإنعاش إن لم نقل بأنها لفظت أنفاسها أمام اليومي والمعيش، الذي تتناسل فيه القضايا

[18] P.Ricoeur, Le temps de la responsabilité, édition Fayard, Paris, 19
91, p 252 .

المستجدة تباعًا، وكأنها تطرح على كائن جديد، يختلف بمواصفاته عن الكائن الإنساني الكلاسيكي الذي ضبط مفهومه في التفكير.

1- المستقبل التقني والنظرة الفلسفية والبيوإيتقية:

نشأت التكنولوجيا نتيجة تقاطع بين الفعل التقني والتفكير العلمي[19]، ولو أن المفكر الألماني شبنغلر O.Spengler(1889-1936م) يعترف بأن منشأ التقنية غير معروف، ولذا يميز بين التقنية لدى الحيوان، الذي يعمل بواسطتها على حفظ بقاءه واستمراره، بما أنه موجه بقوة غريزية تدعم استعماله لها، بينما التقنية عند الإنسان تكون عبارة عن خطة للحياة، تهدف إلى تجاوز المشكلات المطروحة أمامه بالتأمل في الحلول، وهي سيرورة إنسانية لم يوجد شعب خلا منها تقريبًا[20]، سواء كان هذا الشعب بدائيًا أو ظهرت لديه بعض معالم الحضارة، بل إن التقنية تبرز كشيء مشترك بين ما يقوم به الإنسان وما يقوم به الحيوان، لأن الحيوان بإمكانه أن يخلق لنا أشياء يعجز عن تقليدها أدق المهندسين، وهذا ناتج عن تطور مر به الحيوان منذ آلاف السنين، وقد لا يدخل على أكثر إنجازاته أي تغيير، خاصة إذا كانت تؤدي غرضها وهو المحافظة على النوع، بينما الإنسان يمكن أن يدخل على فعل التقنية نوع من التّحسين والإبداع، ليصبح فعل التقنية مزود بمعرفة أو علم وبالتعبير اليوناني لوغوس، لتصبح الكلمة مركبة من شطرين: تقنية ولوغوس أو تكنولوجيا.

من هنا فإن التكنولوجيا ليست فقط وسيلة لتحقيق الفعل، الذي يصعب تحقيقه بأطراف الإنسان الطبيعية، بل هي ذكاء الطريقة في الأداء، أين يحقق بها الإنسان قدرته على العيش مع الأشياء، وكل إنتاج تكنولوجي يفتح مجال لولادة إنتاج تكنولوجي جديد، موسعًا من مجال تطبيق وسيطرة الإنتاج الأول، "أين أصبح لنا استعداد مسبق للإنتاج الأعمى لحاجات مختلفة، حتى ضاع المعنى وتشتت الرغبات، وأصبح الوجود مفككًا"[21].

إن التقنية تتطور اليوم بشكل مهول، تشبه في تضخم حجمها كرة الثلج كلما زاد تقدمها كلما زاد حجمها واكتساحها لكل ما يعترض طريقها، ولا تفرق في طريق تطورها بين حياة الفرد وحياة الجماعة، لأنها سريعة التأقلم مع الفعل الذي يحدثها، الأمر الذي يجعلها

[19] Kemp Peter, L'irremplaçable, édition C .E.R.F , Paris, (S.D), p 24.

[20] O. Spengler, L'homme et la technique, Idées, Gallimard, Paris, 1958, p122.

[21] J .Testart, Les mort de genre humain, Revue de métaphysique et de morale N° 3, Paris, 1987, p 359.

تتقدم ككائن مستقل بذاته، لأنها تحاول أن تتنصل من الفعل الأول الذي بعثها، بتحقيق الاكتفاء الذاتي في أفعالها، دون الرجوع إلى الدفعة الأولى التي منحتها الوجود، وحتى العطب الذي تتعرض له تسعى لأن تصلحه ذاتيا انطلاقا من إعادة برمجة نفسها بسلوك طرق جديدة في حل مختلف المشكلات التي تواجهها، مما يجعلها تنفلت من أي تقييم أخلاقي، بما أنها استقلت عن الاتصال بأطراف الإنسان، ولم تعد تشكل امتدادًا لسلوكه المباشر، وأصبحت تشكل كيانًا بذاتها، مما يصعب وصفها بقيم أخلاقية تقليدية، مثل قيمتي الخير والشر، ولعل هذه الفكرة عبر عنها جيلبرت هوتوا G.Hottois (1946-2019) حينما قال: "لا يمكن أن نصف التكنولوجيا لا بالحسنة ولا بالسيئة، فالوسائل التكنولوجية مجردة تتطور بمعزل عن الأخلاق وعن القيم الإنسانية"[22]، ويضيف في موضع آخر "لم تتوقف التقنية عن التطور والتعدد بل حتى دون برمجة مسبقة، لدرجة أنه لا أحد يستطيع تحديد أبعادها غدًا"[23].

إن التكنولوجيا في تطورها لا تراعي ملائمتها أو عدم ملائمتها للقيم الأخلاقية السائدة في مجتمع ما بل تسعى إلى توفير الرفاهية والنجاعة والحماية للإنسان، أي تلبية رغبة العظمة التي طالما راودت الوجود البشري، كما أشار إلى ذلك بيكون وديكارت "الإنسان سيد الطبيعة" أو "المعرفة قوة"[24]، وهذه الرغبة الجامحة في التقدم جعلت العلماء يرفعون شعار "كل ما هو ممكن نستطيع فعله، وكل ما نستطيع فعله يجب فعله" وبدأ هذا الشعار يعرف رواجًا في جميع المجالات، ويشمل جميع المخابر، بما فيها تلك المخابر التي تتعامل مباشرة مع الكائن الإنساني، وفي هذا يقول جوناس: "إن الثمن الحقيقي لتراكم المعرفة هو ضياع الأخلاق"[25]، وهنا وقعت الأزمة التي تعرفها الأخلاق المعاصرة، لأن جميع المبادئ الأخلاقية المتوفرة لم تستطع تقديم مواكبة للشيء الذي جدّ، وذلك لأنها لم تستطع إسعافنا في الأمور المتولدة عن الوضع الجديد، وهذا ما خلق فراغًا إيتيقيًا.

2- تبادل للأدوار بين الفلسفة والبيوإيتيقا:

[22] G.Hottois, Essais de philosophie bioéthique et biopolitique, Librairie philosophique, J .Vrin, 1999, p 111.
[23] Ibid, p 122 .
[24] F. Bacon,Novum organum (1620), traduire par E. Burnouf classique, Paris, p 01.
[25] J.Hans, Le principe responsabilité, Ed cref, Paris, 1985, p223 .

في الثامن من شهر ديسمبر عام 2001، جمعت اليونسكو أكثر من 20 شخصية من فلاسفة ومفكرين وكتاب وفنانين للنظر في مستقبل القيم، وأثيرت في هذا الملتقى مسألة "فقدان المعنى الأخلاقي بزوال القيم" أو ما يسمى بالفراغ الإيتيقي الذي تعيشه الإنسانية بعد الثورة التكنولوجية التي شهدتها الكثير من مجالات الحياة، وكان الغرض من هذا الملتقى وضع نموذج فولتيرVoltaire (1694-1778) في الأخلاق، الذي كان يسيطر على عصر الأنوار تحت طاولة التمحيص، بما أن النموذج الأخلاقي المنشود يدعو إلى الوحدة كما هي وحدة الهندسة في العلوم، فقد اعتبرت الهندسة نموذج الصدق واليقين لباقي العلوم، التي كانت تريد تقليدها، كذلك بالنسبة للأفراد الذين يرغبون الكمال في سلوكه عليهم التأسي بنموذج الأخلاق الفاضلة.

لكن بعد الأزمة التي زعزعت القرن 20م، ومن بعده القرن 21م، قادت إلى أشكال عديدة من اللايقين، بداية من اللايقين الرّياضي ثم الفيزيائي، ليمتد إلى باقي أشكال المعرفة والسلوك، حتى شمل القيم الأخلاقية التي كان ينظر إلى الكثير منها بنوع من الإطلاقية والثبات، مما جعل الإنسان المعاصر يضع فكرة "التقدم" بين قوسين، بل هناك من عكس وجودها، لأن الانسانية بفقدانها للمعنى تقهقرت من جديد، ولم تعد هناك فكرة التقدم اليوم[26]، بل أصبح الفعل الإنساني منقلبًا، بما أنه لا توجد أي إمكانية لتطبيق الإيتيقا التّقليدية في مجتمعاتنا الرّاهنة، نظرًا لعدم وجود إيتيقا أصلا[27].

إنها وضعية حرجة فرضها، التقدم العلمي والتطور التكنولوجي، مما خلق هذا الفراغ الإيتيقي الكبير، حيث انبجست جملة من الأحكام والقيم الجديدة كنتيجة حتمية لاضمحلال الإيديولوجيات، وتراجع الأديان بمختلف تصنيفاتها، أين ضاع المعنى وتقلصت المبادئ الفلسفية والميتافيزيقية والاجتماعية... وحل محلها نموذج الفردانية، "وأصبح الفرد هو من يتبوء القيمة القصوى في أي حكم"[28]، هذا النموذج أصبح يكيف الأحكام الإيتيقية بحسب الحالة التي يكون عليها الفرد، فلا يمكن أن نصدر أحكامًا مطلقة على كل الحالات، لذا يجب تكييف الحكم بحسب الظروف والحالات الفردانية في إطار ما يسمى بمعيارية البيوإيتيقا.

---

[26] Jacques Ellue, Le temps de la responsabilité, édition Fayaard, Paris, 1991, p 101 .
[27] Ibid, p 19.
[28] R.Jacqueline, La pence contemporaine, édition P.U .F, Paris, 1994, p 3.

3- تراجع الفكر الفلسفي لصالح البيوإيتيقا:

كل حضارة لها أسلوبها ورؤيتها إلى العالم، لذلك يجب أن تكون للبيوإيتيقا معياريتها الخاصة، ومصطلح المعيارية normative مصطلح معار من البيولوجيا، وهي خاصية تملكها المادة الحية تسعى من خلالها إلى تحقيق التكيف مع مختلف الأوساط التي تعيش فيها، فهي تسعى إلى تحقيق التأقلم مع عالمها المتغير، وكذلك حياة الناس وسلوكاتهم بما فيها الأخلاقية والعادية، فلا يمكن أن نتخذ لباسًا واحدًا في كل الفصول، كما لا يمكن أن نستعمل شريحة هاتف واحدة في كل البلدان، بل لكل بلد شريحته الخاصة، التي تمكننا من تحقيق التواصل مع الأخرين في ذلك المجتمع.

لذلك علينا أن نعكس تلك النظرة التّقليدية للأخلاق ، بأنها تكون أخلاقًا مطلقة وصحيحة إذا جمعت أكبر قدر من الأفراد، أي تسعى إلى تحقيق الكوني بلغة "كانط"، فالأخلاق أو بلغة أشمل "البيوإيتيقا" تختلف بحسب الشخص والموقف والوضع والمجتمع الذي يكون فيه الفرد، لذلك على الأخلاق أن تقبل الاختلاف لا أن تسعى إلى محوه والقضاء عليه من خلال توحيد الأحكام، لذلك فإن اتصاف البيوإيتيقا بالمعيارية، ضرورة لابد منها لنتجنب في عصرنا الحالي ما أدخلتنا إليه التطورات التكنولوجية أي عصر ما بعد الأخلاق الكلاسيكية أو ما بعد الحداثة أو ما بعد الإنسانية بلغة هابرماس وليوتار، وفلسفات الاختلاف وما بعد الاختلاف، إنه "عصر الخلاء" بلغة ليبوفتسكي G.Lipovetesky(-1944).

إن الاختلاف قانون الطّبيعة، والأخلاق عليها أن تساير هذا المبدأ فننتقل إلى ما بعد الأخلاق، أي إلى البيوإيتيقا بمختلف أبعادها وتفرعاتها، فلم تعد هناك قيم ثابتة، فكل القيم تتغير بحسب تغير السوق الواسعة، أين لا يمكن نعت حق ما أو واجب ما بالثبات، لأنها أصبحت مؤشراتها خاضعة للأهواء والمخاوف، وحسب الظروف والشخوص، فتتغير القيمة وحكمها بتغير الشخص.

ولو أردنا أن نتكلم بلغة الرياضيات، نقول بأن الأخلاق اليوم شبيهة بالأكسيوماتيك، كل مجتمع يخضع لأكسيوماتيك خاص به، وتكون الأخلاق ناجحة إذا احترم الفرد تلك المبادئ التي سلم بصحتها منذ البداية، وسيقع أكيد في التناقض إذا خرج عن نسق المبادئ التي اعتبرها كمنطلقات يحتكم إليها سلوكه منذ البداية.

إن رهانات البحث في مجال البيوإيتيقا من منطلقات فلسفية قد لا يتأتى من موقع المتخصص في مراجعة تاريخ هذا العلم وطرق تطوير أبحاثه، وإنما هي دعوة إلى تأصيل رؤية إيتيقية لطبيعة هذه الأبحاث واستتباعاتها التطبيقية على الإنسان وعلى الطبيعة، وذلك لأن معايير الإيتيقا التقليدية لم تعد ذات صلاحية مطلقة، كما أن الواقع المعيش اليوم بكل تركيباته المعقدة لم يعد يقبل أن تستوعبه أحكام قيمية بسيطة، لقد أصبحت هذه الأحكام الأخلاقية المتوفرة اليوم غريبة عن متطلبات الإنسان المعاصر، الذي تشهد حياته تمددًا في جميع الاتجاهات، ذلك أن الحواس لم يعد مجال تناولها للمواضيع يقتصر على مدى قدرتها البيولوجية في استيعاب الموضوع، بل أصبحت حدودها غير معروفة المعالم بفضل التقنية التي زادت من قدرتها ووسعت من مجال استيعابها، لدرجة أن العقل اليوم لم يعد يستطيع مجارات ما تأتي به الحواس من معلومات متسارعة ومستجدة في كل لحظة.

لذلك أخذت الفلسفة على عاتقها خلق نموذج إيتيقي معاصر يساير تلك التطورات البيوتكنولوجية والطبية من أجل إرجاع ذلك التوازن المفقود بين المستجدات المعرفية والقيم الإيتيقية، ومن هنا يصبح للإيتيقا مجالاتها العينية التي تتحدث عنها، من خلال حالات تشهدها المؤسسات الاستشفائية المختلفة، وتعيش مع الفرد معاناته وتسمع آهاته، لتتمكن من تحديد قيم نابعة من واقعه المعيش، لتتشكل بذلك ما يسمى "بالإيتيقا التطبيقية" التي ترافق الإنسان الفرد، وتساهم في توجيه الأبحاث البيوطبية نحو غايات تخدم مبتغى الدولة التي هدفها خدمة مواطنيها والسهر على راحتهم.

من هذا المنطلق نتداخل في معالجتنا لهذه القضايا مع ممارسات مهنية وعادات اجتماعية وقوانين ومبادئ دينية... لنخرج في الأخير باقتراحات وحلول معيارية تساهم في تطوير قطاعاتنا الاستشفائية.

إن علاقة المريض بالوسط الذي يعيش فيه، عرفت عبر تاريخها عدة تجاذبات، إلى حد وصلت فيه بعض المجتمعات درجة العزل والإقصاء لهذه الفئة، ورفض المجتمع خاصة الغربي في القرون الوسطى العيش مع المريض في وسط واحد، واعتبر المرضى مظهر مشوه لجمال المدينة وعقلانيتها، أين عوملوا كمجرمين وقتلة يجب الزج بهم في المشافي المعزولة أو حتى السجون وإخضاعهم إلى شتى أنواع العذاب.

هذا الإقصاء ورفض العيش المشترك مع المريض ناتج عن خلفيات إيديولوجية قبل أن تكون أحكام طبية تتسم بالموضوعية، فقد بنيت هذه الأحكام انطلاقًا من تحديد الذاتية البيولوجية أو العضوية في إطارها الاجتماعي، لأنه متى استندنا إلى هذه المعايير المصطنعة، فإنّا نعمل على تغليف حقيقة الكائن الإنساني، الذي تحكمه شروط مغايرة لتلك الشروط التي تحكم الذاتية الاجتماعية، والمرض له معاييره البيولوجية التي نخطأ إن أدخلناه في منظومة معايير مختلفة، فربط الطاعون والحمى الصفراء والجنون والشذوذ.... بقيم أخلاقية وضعية يفقدها ميزتها البيولوجية، ويجعلنا نقصي المصابين بها، لذا علينا أن نتجاوز تلك الأخلاق الصماء بأخلاق متحركة تتأقلم مع مختلف التغيرات الحاصلة على الإنسان، بما أن الطبيعة البيولوجية للإنسان تتغير معياريتها فكذلك هو الشأن بالنسبة إلى سلوكه الذي عليه أن يؤقلمه بحسب الوضع الذي يوجد فيه.

خلاصة:

نحن اليوم نتكلم عن ما بعد الإنسان أو الإنسانية المتجاوزة Transhumansme التي تحتاج إلى إيتيقا جديدة تتفاعل مع قضاياها، تكون إيتيقا متحولة، منفتحة عن الحالات الطارئة والشاذة، تتقبل الموقف والنقيض دون أن يكون لها ميل لأحد طرفي المعادلة، غير مرتبطة بمبدأ يكبل حرية تحركها في مساحة الإنساني، دون أن تفصل نفسها عن سلوكه ومظهره والمآلات التي ينتهي إليها، متجاوزة كذلك تلك الثنائيات التي طالما ربطت مع بعضها البعض، كالحق والواجب، والأسرة والإنجاب، المرض والعلاج...

تمهيد:

لقد تعرضت الإنسانية عبر تاريخها إلى الكثير من الأزمات، جعلتها تراجع الكثير من المبادئ والقيم التي كانت تؤمن بها، لكن تبقى درجة تأثير هذه الأزمات واللّحظات الحاسمة في تاريخ البشرية راجع إلى مدى تأثيرها على الحياة العامة للإنسان، وهنا مقولة الإنسان قد تأخذ معنا عدة أبعاد، بحسب المرجعية التي نتكلم عنه من خلالها، أين حصرت أبعاده في الخطاب الكلاسيكي ضمن القيم التي يريدها هذا الخطاب له، فكانت الابستيمولوجيا ومن ورائها كل المعارف بما فيها العلوم تخاطب الإنسان كعقل، والنظم الأخلاقية بمختلف مشاربها تخاطب الإنسان كضمير، والنظريات الوجودية والوجدانية تخاطب الإنسان كشعور، لذلك جاءت قيم هذه الأبحاث محصورة في ثلاثة أقطاب كبرى هي الحقيقة والخير والجمال، ومن هنا اطمأنت البشرية إلى مفهوم الكمال المنحصر في هذه القيم، التي تسوق التفكير نحو الحقيقة، والفعل نحو الخير، والنفس نحو تحقيق الطمأنينة وراحة البال بتمتعها بقيم الجمال، لكن هذه القيم كانت تعبر عن "أشواق الإنسان" إلى عالم مثالي كامل، تسمو فيه الروح وتترفع فيه عن كل الملذات المرتبطة بالجسد، فكيف تغيرت مفاهيم الإنسان بعد تطور علوم الطب والبيولوجيا؟ وما هي طبيعة الإنسان الذي تتكلم عنه البيوإيتيقا اليوم؟

1- الإنسان وإعادة الاعتبار للجسد:

لقد نُظر إلى الجسد بنوع من الدونية مقارنة بالنفس وقيّمها منذ عصور، فقوبلت الحقيقة بظلال العالم المادي، والخير بملذات الجسد وشهواته، والجمال بقبح صورة المادة وبشاعة الجسد، حتى وإن بدا جميلاً.

لكن هذا التقسيم الثلاثي قد يثير الكثير من ردود الفعل المعارضة اليوم، خاصة في أبحاث مغايرة لفلسفات كلاسيكية كانت تمارس الإقصاء في حق الجسد، إن الإنسان أعقد من أن تحصره هذه القيم فهو زيادة على أنه كائن مفكر وأخلاقي ومتذوق للجمال، هو كذلك كائن سياسي واقتصادي واجتماعي... هذا صحيح إلى حد ما، لكن الخطاب

الكلاسيكي اقتصر في أغلبه على هذه القيم وشيد من خلالها صورته للإنسان، التي لم تظهر فيه صورته الأولى أو قيمته الأولى وهي قيمة الحياة.

إن قيمة الإنسان الأولى هي كينونته الحية، بما أنه يملك جسد يؤدي به هذه الوظائف كلها، وإذا تعرض هذا الجسد للعطب وشلت حركته انهارت معه كل هذه القيم، بما أن الإنسان قبل أن يكون كائنًا مفكرًا أو كائنا أخلاقيًا أو كائنًا ذواقًا للجمال هو كائن بيولوجي، يقوم بعمله نتيجة التكامل الخلاق والمنسجم لأعضائه البيولوجية، بما أن مجموع وثائقه البيولوجية وسلامتها هي من تضمن له الانتقال من مرحلة إلى أخرى، فهذا الجسد هو الذي به وجد ومن دونه يتوقف عن الوجود، فالإنسان ولد جاهلا بلا حقيقة وشهوانيًا بلا أخلاق وقبيحًا بلا جمال، واستمر في الوجود، لكن إذا لم يتمكن من تحقيق التكامل في عمل أعضاء جسده فإن ذلك يهدد وجوده.

2- **الأزمة الصحية وإعادة التراتب:**

نتيجة الأزمة الصحية التي تأثر بها العالم مؤخرًا، والتي سبّبها فيروس كورونا، حيث تراجعت معه الكثير من القيم، والمبادئ، والنظم، وحتى الخطط الاقتصادية والتنموية، لصالح بعد واحد وهو البعد الصحي، الذي يحافظ به الإنسان على بعده البيولوجي، أين أصبح الطاقم الطبي مقدم على كل الطواقم وخدمته مرادفة لمفهوم "منقذ الحياة"، هذه الأزمة جعلت الإنسان يتساءل عن الأولوية التي يقدمها كنموذج للمعرفة: فإلى أي مدى نحن بحاجة إلى قضايا علمية متعلقة ببعدنا البيولوجي، وهل يمكن اقتراح حلول معيارية تعيد ترتيب علاقاتنا بالطبيعة، وباقي الكائنات الحية، بما فيها المجهرية أو الفيروسية؟ وما هي حدود تجاربنا المخبرية على هذه الفيروسات، التي يمكن أن تتحول إلى وباء يفني البشرية؟ وما هي حدود قدرة العلم والتقنية على حماية حياتنا أم أن هذه اللاّحدود هي من أثارت المسكوت عنه في الطبيعة؟ وما هو موقف البيوإيتيقا من هذه القضايا؟

3- **التقنية، وتسابق إنقاذ الجسد:**

لقد غدا سؤال التقنية اليوم مصدر انهمام الكثير من الدّارسين، ومن حقول شتى، لأنه لم يعد موضوعًا للاشتغال الفكري فقط، بل أصبح مشكلاً معاشًا، يمكن ملاحظة مظاهره في جميع مناحي الحياة، لأن جوهر التقنية كما حدده اليونان قائم على فعل الصنع اليومي،

فقد كان هوميروس ينعت بها الحرفيين والعمال بشكل عام، وفي وقت لاحق أصبحت مرادفة للصانع le maitre، و*technè* كلمة تحيلنا كذلك إلى فعل "الإنتاج" أو "المواد المصنعة"، ثم عممت على كل فعل منتج حتى وإن لم يكن مادي، وهذا لأن الأمر مرتبط بالفعل المنفذ أو "الفعل الفعال"، الذي يترك أثرًا عند قيامنا به[29] le faire efficace.

هذا الفعل دخل في تكوين الحياة اليومية للإنسان وغير الكثير من مظاهر الطبيعة، ولم يعد متوقعًا المدى الذي يمكن أن تصل إليه في مجال تغيرها، وقد أشار إلى هذه الخاصية جيلبيرت هوتوا G.Hottois بقوله: "ما فتئت التقنية تتطور وتتعدد دون برمجة مسبقة حتى أنّه لا أحد يمكنه أن يحدد أبعادها غدًا"[30]، فلم تعد هناك معالم يمكن الانتهاء إليها عندما ننطلق في فعل الانكشاف التقني.

ومما زاد وتيرة القلق نحو التقنية، هو ذلك التماثل الذي أدى بربطها بنموذج الكائن الحي، فتطور دراسة الكائن الحي كانت دائمًا مرتبطة بتطور علوم الفيزياء والكيمياء، وهذا لأن الفيزياء تحاول أن تفسر حركته انطلاقًا من عُدة القوانين التي تملكها في تفسير حركة المادة الجامدة، واعتبار الكائن الحي جزء من هذا العالم الذي تنطبق عليه هذه القوانين، كما تعمل الكيمياء في المقابل على تبسيط التركيب العضوي للكائن الحي، باعتباره جملة من المحاليل التي تحقق مجموعة من التفاعلات، لتنتج لنا تراكيب أجهزة العضوية، وقد ساد هذا المفهوم بداية من القرن 18م، الذي ظهرت فيه الساعة والمحركات ذاتية الدّفع، أين ربط مفهوم الكائن العضوي بالآلة Animal-machine، وفي مطلع القرن 19م مع تطور التقنية مع لافوازيه Lavoisier في التكوين الكيميائي للهواء، أصبح الكائن الحي آلة بخارية Machine à vapeur، بما أن عملية التنفس هي التي تحدث معها عملية حرق الغذاء لتولد لنا غاز الكربون والحرارة المحركة للجسم[31]، وقد ساعد هذا التقدم العلماء والأطباء على فهم طبيعة عمل الأعضاء لدى الكائنات الحية، مما قدم الكثير من الخدمات للطب والبيولوجيا، خاصة من خلال تحديد سبب الأمراض والأوبئة، مما ساعد على إيجاد علاجات ملائمة للكثير من الحالات التي كانت تعتبر مستعصية عن العلاج.

3- التقنية بين الاتهام في خلق المرض والأمل في جلب الشفاء:

[29] C. Castoriadis, Les carrefours du labyrinthe v1, édition du Seuil, Paris,1978, p223.
[30] G.Hottois, Evaluer la technique, éditon vrin, Paris, p 122.
[31] Claude Lafon, La biologie et les controverses sur l'Homme, Ellipses édition, Paris, 2008, pp 18-18.

كورونا صناعة مخبرية كما تؤكد الكثير من الدراسات الاستخباراتية، هذا التطور الكبير الذي بدا في ظاهره فتح مدهش بالنسبة للطب والبيولوجيا، طرح في المقابل قضايا وإشكاليات عديدة، نظرًا لتمادي التقنية في تدخلها في مجال دراسة الكائن الحي، أين شُيء جسده، وأصبح الرّهان معقود على مدى نجاعة المسالك التقنية في تحقيق فتوحات واكتشافات علمية على حساب كرامة هذا الكائن، بما فيها الكائن الإنساني، الذي أصبحت هذه المحاولات والاكتشافات تهدد هويته وكرامته، بل ووجوده ككل، فالتراكم المعرفي والتسارع الكشفي للأبحاث التقنية هدد ميادين حساسة في مجال الطب الإنساني، والتي اعتبرها الطبيب الفرنسي جون برنارد Jean Bernard (1907-2006م) المجال الذي تمكنت التّقنية من التّلاعب به، وهي:

- التحكم في قوانين الوراثة.
- التحكم في في عمل الجهاز العصبي.
- التحكم في الولادة أو النّسل[32].

وهذا ما جعل هذا القرن ينشغل بآثار هذه الاكتشافات وأثرها على الإنسان أكثر من انشغاله بنتائج هذه المخابر في حدّ ذاتها، متوجسًا من هذا التّغول للفعل التقني الذي يبدو أنه أصبح موجهًا من سلطة أخرى تسعى إلى تحقيق مكاسب من وراءه سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو عسكرية... ليُختزل بذلك الإنسان في جسد يمكن لسلطة ما أن تتحكم فيه، وقد أشار إلى ذلك الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو، حينما قال: "السّلطة تمارس تأثيرًا مباشرًا على الجسد، إنّها تستثمره ترسمه وتروّضه، تعذّبه وتفرض عليه أعمالاً تلزمه باستعراضات وتطلب منه إشارات"[33]، وهذا ما طرح مفهومًا جديدًا للإنسان.

4- الإنسانية الهشّة:

بعد اقتحام التقنية مجال الوراثة وفك بنية الجهاز العصبي الإنساني، والعمل على التحكم في نسله، أصبح بالإمكان إيجاد نموذج إنسان تقني في مقابل الإنسان الطبيعي، فمن خلال التحكم في المني والبويضة، إتّجه العلم إلى تخليق كائن حي آلي أو بتعبير فرانسوا داغوني: "كائن آلة حية، وسط بين الإنسان والقرد، إنه الكائن المضاعف"[34]، هذا الكائن الذي أصبح نموذجه ومواصفاته حسب الطّلب، أين بدا معه إنسان المحاورات السقراطية الذي يعرف

[32] Jean Bernard, C'est l'homme qu'il s'agit, édition Odile Jacob, Paris, 1988, p263.
[33] Michel Foucault, Surveiller et punir, Naissance de la prison, édition Gallimard, 1975, p 30.
[34] François Dagognet, La Maîtrise du vivant, Histoire et philosophie du science, edition Hachette, Paris, p148 .

ذاته بذاته، من خلال مبدأ "أعرف نفسك بنفسك"، إنسانًا ساذجًا تنعكس آراؤه على نفسه بطريقة سطحية، بما أنه يجهل حتى الأمراض التي تصيبه إذا لم ينبئه بها الألم.

خلاصة:

لقد أصبح الإنسان اليوم "إنسانًا شفافًا"[35]، حسب تعبير أدورنو روبرتو R.Andorno (1961-)، وهذا نتيجة إحاطة العلوم الطبية اليوم بوظائفه البيولوجية، وشفراته الوراثية، أين يمكن الاطلاع على عمل أعضاءه الدّاخلية من خلال التصوير الإشعاعي، الذي تحول معه الجسد الإنساني إلى شيء زجاجي يمكن النفاذ إلى داخله دون المساس به.

[35] R.Andorno, La bioéthique et la dignité de la personne, edition P.U.F, Paris 1997, p 357.